آيَاتُ الأَخْتِيَارِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الشيخ الدكتور جواد رياض
الأزهر الشريف
جمهورية مصر العربية

فحوى البحث

سبق لمجلة المصباح أن نشرت أبحاثا مفصلة في موضوعة الاختيار التي أقرها خالق الكون سبحانه لمن يريد أن يدخل الاسلام بمحض ارادته واختياره. فالاكراه على شيء لايمكن أن يتغلغل ذلك الشيء الى قلبه، ومن هنا جاءت ظاهرة النفاق والرياء.

حصر الشيخ الباحث حديثه بأن تناول الآيات الشريفة التي تقرّ الاختيار وتدحض الإكـــراه، واثبت أن الله –سبحانه –لو شاء (وهو القادر على كل شيء) لجعــل الناس كلهم مؤمنين، وهو أمر لاينكره مؤمن بقدرة الله.

مقدمة:

قام الدين الإسلامي على الاختيار والدعوة، ولم يكره أحدا على الدخول فيه، أو الإيمان بما جاء به رسوله ﷺ.

وجاءت الأدلة من آيات القرآن الكريم لتبرهن على هذا المعنى، وتوضح أنه لا إكراه، ولترشد نبي الإسلام الخاتم إلى هذا المعنى، فلو شاء الله لجعلهم مؤمنين، ولكنه سبحانه وتعالى خلقهم على أن يكونوا مختارين، فمن شاء أن يختار الإيمان فليفعل، ومن شاء أن يختار غير ذلك فليفعل، فطريق النجاة واضح وجلي، وطريق الإحسان فيه الرضا واليقين.

وقد تناولتُ في هذه الدراسة آيات القرآن الكريم التي تقرر معاني الاختيار وعدم الإكراه، ثم أشرت إلى التطبيق العملي لرسول الله ﷺ للاختيار في دعوته، وفي تبشيره، إذ إنه قد اتهم بنشر الإسلام بالسيف، وهذا ما يكذبه القرآن وتكذبه حقائق التاريخ.

قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦].

فهذه الآية من أوضح الآيات التي يستدل به على الاختيار، وعلى حرية كل إنسان في الإيمان، وعلى حرية كل عاقل أن يفكر، فلا يجبر على شيء، وإنما يكون دافعه إلى دين الإسلام هو قلبه وعقله وتفكيره وقراره.

قال الزمخشري: "لم يجر الله أمر الإيمان على الإجبار والقسر ولكن على التمكين و الاختيار، ونحوه قوله تعالى ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا ﴾ أي: لو شاء لقسرهم على الإيمان ولكنه لم يفعل، وبنى الأمر على الاختيار"[(١)].

فجملة (لا إكراه في الدين) خبر في معنى النهي، أي أن المعنى نفي أسباب الإكراه.

فلا تكرهوا أحدا على الدخول في الإسلام أو اتباعه، فإنه واضح جلي، براهينه واضحه، وأمر الإيمان يجري على الإستدلال والتمكن من النظر والاختيار[(٢)].

(١) الكشاف: الزمخشري، مكتبة العبيكان، السعودية، الطبعة الأولى، جـ ١، ١٩٩٨، ص٤٨٧.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ابن عاشور، دار

وقد ذكر ابن كثير في تفسيره أن هذه الآية نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له: الحصيني كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلا مسلما فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟. فأنزل الله فيه ذلك»[٣].

وللإمام محمد عبده كلمة في هذه الآية يقول فيها: «كان معهودا عند بعض الملل -لا سيما النصارى- حمل الناس على الدخول في دينهم بالإكراه. وهذه المسألة ألصق بالسياسة منها بالدين، لأن الإيمان-وهو أصل الدين وجوهره- عبارة عن إذعان النفس، ويستحيل أن يكون الإذعان بالإلزام والإكراه، وإنما يكون بالبيان والبرهان، ولذلك قال تعالى -بعد نفي الإكراه: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ أي قد ظهر أن في هذا الدين الرشد والهدى والفلاح والسير في الجادة على نور[٤].

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة يونس: ٩٩].

أراد الله عز وجل لعبيده الاختيار في أمر الإيمان، ولم يرد أن يحملهم على الإيمان قسرا، ويرغمهم عليه إرغاما، أو يخلقهم طائعين -كما خلق الملائكة المكرمين-.

قد يكون الداعي إلى الله متمنيا هداية الناس، حريصا على أن يكونوا مؤمنين، ولكن هذا ليس في استطاعته، إنما في استطاعته التبليغ، فما أُمر إلا بذلك، فرسول الله ﷺ كان حريصا على أن يؤمن الجميع، فأخبره الله عز وجل أنه لو شاء لاضطرهم إلى ذلك، ولكنه خلقهم مختارين، فآمن بعضهم وكفر بعض «(أفأنت تكره الناس) أي تكره العرب، فتفرع عن ذلك إنكار ما هو كالمحاولة

سحنون للنشر والتوزيع، تونس، جـ٣، ص٢٧.
وتفسير القرآن الكريم: ابن كثير، دار طيبة، ٢٠٠٢، ص٦٨٣.
(٣) المرجع السابق.

(٤) تفسيرالمنار للإمام محمد عبده: محمد رشيد رضا -الهيئة المصرية العامة للكتاب، جـ١، ١٩٩٠، ص ٣١، ٣٢.

لتحصيل إيمانهم»[٥].

(أفأنت تكـره الناس) فهل ستكره يا محمد الناس؟. فالله عز وجل لم يأمرك بالإكراه، وإنما أمرك بالتبليغ. (إن عليك إلا البلاغ)، (وما أنت عليهم بجبار) فلا يكون الدين بالإكراه «ولو شاء ربك مشيئة القسر والإلجاء لآمن من في الأرض كلهم مجتمعين على الإيمان، مطبقين عليه لايختلفون فيه، إنما يقدر على إكراههم وإضطرارهـم إلى الإيمان هو أنا، لا أنت»[٦].

إذن فالإيمان لا يكون بإكراه الناس والله تعالى أراد لهم الاختيار في اعتقادهم وإيمانهم، فليس للنبيﷺ أن يكرههم، وليس لأحد من بعده أن يكرههم.

«وهـذا يفيد أن الإكراه موضع استنكار، لأنه إيجاد للإيمان، حيث لا تكون إرادة وقوله تعـالى ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ فيه مـا يدل على أنه ينشئ مؤمنين، وليس له ذلك، إنمـا هو الله تعالى الذي يقول ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾»[٧].

قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [سورة الكهف: ٢٩].

هناك طريقان للإنسان، طريق الإيمان والسعادة، وطريق الكفر والشقاء الدنيوي والأخروي، فطريق الإيمان به راحة القلب الذي فطر على الدين، "إن الروح والراحة في الرضـا واليقين"، وطريق الكفر به الإغلاق والتعب النفسي، "وإن الغم والحزن فى الشك والسخط"، وللإنسان أن يختار أحد الطريقين، فالاختيار له، ويوم القيامة يحكم الله عز وجل فيما كنتم فيه تختلفون.

أمر الله نبيه أن يقول ويبين للناس أن هذا الحق الذي أمـرت بتلاوته وتبليغه هـو من عند الله ليس فيه تبديل ولا تغيير[٨].

(٥) تفسير التحرير والتنوير: ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، جـ ١٢، ص٩٣.

(٦) الكشاف، مرجع سابق: جـ٣، ص ١٧٦.

(٧) زهرة التفاسير: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، جـ٧، ص ٣٦٣٨.

(٨) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية: محمد الشوكاني، دار المعرفة، ٢٠٠٤، جـ ١، ص٨٥٨.

أمر الله نبيه أن يقول ويبين للناس أن هذا هو الحق الذي جئتكم به في هذا القرآن العظيم لدين الإسلام، كان مبدؤه من ربكم وليس من وحي الشيطان أو افتراء الكهان[٩].

أمر الله نبيه أن يقول ويبين للناس أن هذا هو الحق الذي فيه خيركم وصلاحكم وليس فيه ضلالكم وفسادكم فاتبعوه ولا تنحرفوا عنه[١٠].

ومع هذا البيان فإن الاختيار لكم، فمن شاء أن يسلك بنفسه طريق النجاة، ومن شاء أن يسلك بنفسه طريق الهلاك، فالتخيير قائم لكم، والإنسان متى ميز بين الطريقين فله أن يختار ما شاء.

وقد قال بعض العلماء: هذا صريح في أن الأمر بالإيمان والكفر والطاعة والمعصية مفوض إلى العبد واختياره، فمن أنكر ذلك فقد خالف صريح القرآن، ونفع الإيمان يعود على العبد، وضرر الكفر يعود عليه أيضا (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم) فالله عز وجل لا ينتفع بإيمان المؤمنين، ولا يستفيد بكفر الكافرين[١١].

قال تعالى: ﴿... وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ..﴾ [سورة الحج: ٧٨].

فالله عز وجل جعل ملة إبراهيم ملة الإسلام، ملة حنيفية سمحة، "بعثت بالحنيفية السمحة"[١٢].

شرعة ليس فيها تضييق كشدائد بني إسرائيل وغيرهم، بل فيها التوبة والإنابة، والكفارات والرخص، ونحو ذلك مما يكثر عده[١٣].

وقد ذكر الماوردي وجها في تفسير هذه الآية: «أنه عام لأنه ليس في دين الإسلام

(٩) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الشنقيطي، دار الفكر، ١٩٩٥، جـ ٣، ص٢٦٧.

(١٠) زهرة التفاسير: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، جـ٩/ ص٤٥٢٥.

(١١) التفسير الكبير: فخر الدين الرازي، دار الكتاب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤، ص١٠٢، ١٠٣.

(١٢) حديث نبوي شريف أخرجه أحمد عن أبي أمامة.

(١٣) تفسير ابن عطية: عبد الحق ابن عطية، طبعة وزارة الأوقاف القطرية، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧، جـ٦، ص٢٧٧.

ما لا سبيل إلى الخلاص من المأثم فيه»[١٤].

ولا شك أن هذا المأثم يشمل من أراد الدخول في الإسلام، فليس عليه حرج، فقد كان اختياره في البداية أن يبتعد، واختار الآن أن يقترب، فرفع الله عنه الحرج بالإنابة إليه، والدخول في الإيمان.

فهذه الآية، وإن كانت خاصة بالمؤمنين في قول أكثر المفسرين بفتح أنواع الكفارات والديات والأروش والرخص، إلا أنها فتحت الباب لغير المؤمنين برفع الحرج عنهم باختيارهم الإيمان بعد الكفر.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ...﴾ [سورة الشورى: ٨].

قال في الكشاف[١٥]: لجعلهم أمة واحدة أي: مؤمنين كلهم على القسر والإكراه... والدليل على أن المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان قوله ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ﴾ بإدخال همزة الإنكار على المكره دون فعله دليل على أن الله وحده هو القادر على هذا الإكراه دون غيره.

والمعنى: ولوشاء ربك مشيئة قدرة لقسرهم جميعا على الإيمان، ولكنه شاء مشيئة حكمة، فكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون: ليدخل المؤمنين فى رحمته، وهم المرادون بمن يشاء...

فالله عز وجل شاء وأراد أن يجعلهم مختارين للإيمان، وغير مكرهين، فالإيمان يبدأ من القلب، والقلب لا يقبل الإكراه، ولا يقبل القسر، وإنما يرسخ فيه ما يختاره بإطمئنان.

هذه الآيات السابقة تبين الصورة الحقيقية للإسلام في دعوته إلى الله، إذ تدور الآيات -وكذلك تدور خطوات الرسول- حول الاختيار وترك الإكراه في قبول هذا الدين، إنما هي دعوة، فقد خاطب القرآن الكريم سيدنا محمد بقوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [سورة الغاشية: ٢٢] وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [سورة القصص: ٥٦].

(١٤) تفسير الماوردي: أبو الحسن الماوردي، دار الكتب العلمية، جـ٤، ص٤٣.

(١٥) الكشاف: الزمخشري، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة، جـ٣، ص٤٦١.

- وقد أخذ على ديننا الحنيف أنه دين الإكراه وأنه نشر بالسيف، والحقيقة القرآنية -كما بينا تخالف ذلك، ومن المعروف أن الدين لا يفرض بالقوة، والعقائد لا تفرض بالإكراه.

يقول غوستاف لوبون: «وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة... ولم ينتشر القرآن بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدهـــا.... وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرا، كالترك والمغول...»[١٦].

وقال أيضا عن سيدنا محمد:

«وكان محمد كثير المسامحـــة لليهود والنصارى خلافا لما يظن..»[١٧].

وهـــذه شهادة لباحث غير مسلم توخى دراسة التاريخ بحياد شديد.

- وقد ظل رسول الله ﷺ يدعو بالحكمة ثلاث عشرة سنة وهو في مكة، وظل قومه يحاربونه بكل الوسائل، ومع ذلك كان صابرا ليبلغ رسالته، وأمر أصحابه ومن آمن به بالصبر، وطلب منهم أن يهاجروا -أولاً -إلى الحبشة، ليعيشوا في ظل ملك عادل لا يظلم عنده أحد، وقد عمّ الظلم عليهم والحصار الاقتصادي، حتى يخرجوا من الديار ويتركوا أموالهم بغير حق.

وفي نهاية هذا كله أذن الله لهم أن يهاجروا إلى المدينة، وأن يتخذوا منها وطناً جديداً، تبدأ فيه حياة بعيدة عن الظلم، وأذن لهم أن يدافعوا عن أنفسهم وعن حقوقهم، وأن يدفعوا الظلم الذي وقع عليهم ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [سورة الحج: ٣٩-٤٠].

فهل بعد هذا كله يتهم الإسلام بأنه نشر بالقوة. إن تاريخ هذه الحقبة وتاريخ هذه البداية يشهد بأن الرسول ﷺ وأصحابه قد لقوا ما لقوا من أجل نشر كلمتهم الحسنى التي أراد الله أن يهدي بها البشر.

- والرسول ﷺ في خطواته هذه ودعوته

(١٦) حضارة العرب: غوستاف لوبون (ترجمة عادل زعيتر)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢، ص ١٣٤.
(١٧) المرجع السابق ص١٢٨.

لم يكن بدعاً من الرسل، وإنما كان جميع الرسل والأنبياء من قبله يدعون بالحكمة، ويبشرون، وينذرون، يبشرون من آمن، وينذرون من ترك طريق الإيمان إلى الكفر والشرك، قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[سورة الأنعام: ٤٨]، فسيدنا محمد كان مكملا لطريق الدعوة، سالكا طريق الحكمة، خاتماً للمرسلين ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[سورة البقرة: ١١٩].

- وإذا تتبعت آيات القرآن الكريم وأحاديث النبوة -شارحة لها- واستقرأت أصول الإسلام الحقيقي لوجدت أنه لا يعترف بالعقيدة التي وجدت عن طريق الإجبار أو الإكراه، ولكن ما تكون عن طواعية واختيار، قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا وَهَٰذَا .. ﴾[سورة النحل: ١٠٦].

وما ذكر في كتب المفسرين -في سبب نزول هذه الآية -أن «عمار بن ياسر عذب تعذيباً شديداً، وأجبر علي النطق بما لا يرضى من كلمات الكفر، ثم أقبل على رسول الله ﷺ يبكي، فجعل النبي ﷺ يمسح عينه ويقول له: «كيف تجد قلبك» فقال: قلبي مطمئن بالإيمان فقال: «يا عمار إن عادوا فعُد».

- وأما من احتج علينا بقول رسول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله «فإن دعوة الإسلام لما بدأت حورب النبي ﷺ وعودي عداوة شديدة، وكان أعداؤه من المشركين يريدون أن يمحوا هذه الأمة الجديدة من على وجه الأرض، فما كان من النبي ﷺ وأصحابه وآل بيته إلا أن يدافعوا، أذن الله لهم في قتال هؤلاء المشركين وهؤلاء الذين يحاربونه ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[سورة البقرة: ١٩٠]، فإذا أعلن هؤلاء استسلامهم أو أعلنوا دخولهم في أمة التوحيد توقف هذا القتال فوراً.

وإنك تلاحظ أن الرسول ﷺ قال: "أقاتل" ولم يقل: "أقتل" فاللفظ الأول يدل على الصد إذ إن المفاعلة تقتضي ذلك، وأما اللفظ الثانى فيدل على البدء بالقتال وهذا ما لم يحدث.

- وقد كانت الحروب في عهد النبي ﷺ لدفع الظلم والعدوان الذي أحيط به وبآل بيته وأصحابه، وبمكانه الجديد ومدينته المنورة، ولم تكن عدوانا ولا بغياً ولاطمعاً.

ففي غـــزوة بدر أشعل المشركون الحرب، فبعـــد هجرة النبي ﷺ وأصحابه ازداد عدوان المشركين على الـــمسلمين الموجودين في مكة، فكـــــان خروج المسلمين في هذه الغزوة نصراً لإخوانهم المستضعفين وإغاثتهم، وإغاثة نسائهم وأطفالهم، بل ورجالهم، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [سورة النساء: ٧٥].

وفي غزوة أحـــد جمع مشركو مكة أنفسهم وحلفاءهم وخرجوا ليحاربوا رسول الله والمسلمين، وعندما اقتربوا من المدينة المنورة شاور الرسول ﷺ أصحابه ثم خرج بعد المشاورة لأعدائهم، وقد استشهد في هذه الغزوة عدد كبير من المسلمين.

وفي غزوة الأحزاب تجمع كثير من الرجال من قبائل عدة، ليتجهوا نحو المدينة المنورة يريدون القضاء على المسلمين، وقد كان معهم اليهود وزعماؤهم، فأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق حول المدينة، وقد تعب المسلمون تعباً شديداً في هذا الحفر، وعندما وصل المشركون إلى المدينة كانت الحرب وكان الانتصار، وكانت هزيمة المشركين وشركهم.

- وقد ثبت في التاريخ أن المسلمين لم يجبروا أحداً على الدخول في دينهم، فلم يقبل رسول الله ﷺ الرجل الذي أراد أن يجبر ولديه على ترك دينهما، وفي لقائه بنصارى نجران، ليعرض عليهم الإسلام، لم يجبرهم على الدخول فيه. ولم يجبر عمر المرأة العجوز التي رآها ودعاها إلي الإسلام، ورفضت، وأرادت

أن تبقى على دينها حتى الموت، فقط شعر بأنه أدى مسئولية التبليغ.

وعندما دخل عمرو بن العاص مصر، كان عدد المسلمين خمسة فى المئة، وكان عدد الذين يعتنقون المسيحية وغيرها من الأديان يمثل خمسة وتسعين في المئة.

وعندما تقرأ عن غزوات الرسول ﷺ، والتي بلغت حوالي سبع وعشرين غزوة، والسرايا التي بلغت أكثر من ثلاثين سرية، تجد عدد القتلى في هذه الغزوات كان قليلاً جداً سواء من المسلمين أو من أعدائهم، وذلك إذا قارنتَ هذه الأعداد بحروب الإبادة قبل الحروب العالمية مثلا.